

على هامش البداية

محمود درويش

لعل بعض الكتاب العرب قد بلغ حد المبالغة في توجيه الاهانة الى أمته عندما كان يمجدها . فان حصر مفهوم انبعاث الأمة او عودة الروح — كما هو شائع القول الآن — في معنى واحد هو الجرأة على مجرد اطلاق النار على العدو هو اعلان عن مدى فقر الأمة التاريخي من جهة ، ووضع الرصاصة مقياسا وحيدا لاصالة الأمة العربية وحضارتها .

ليس هذا مجال البحث عن معنى مفهوم انبعاث الأمة ودور حروب التحدي فيه . ولكن يجب الاسراع في القول ان هذا المقياس الوحيد الضيق حتى الخنق كان نجاحا صهيونيا في نقل عدوى دائها التاريخي الى نفوس البعض منا . وان أحد محتويات المعركة التي نخوضها الآن ضد العدو هو القضاء على بطلان هذا المقياس الوحيد الذي نجح في اقامة الكيان الاسرائيلي من ناحية ، وعبأ هذا النجاح بمقومات فشله التاريخي من ناحية اخرى .

ومهما تكن نهاية المعارك العسكرية التي تحمل من الجانب العربي ما هو أعمق بكثير من المعنى العسكري ، فان معادلة النجاح — الفشل الذي تنطوي عليه التجربة الاسرائيلية ستعرض لمناقشات فكرية ، داخل كيان العدو ، كان يعتبر مجرد طرحها تطاولا على قدس أقداس الصهيونية ايدولوجية وممارسة .

قد تكون هذه الحرب انبعاثا للأمة العربية وتجديد روحها اذا كانت بداية عربية ، ونهاية اسرائيلية في آن واحد .

اننا نسرع ، على ما يبدو ، الى نفص أيدينا من كارثة حزيران . وأكثر من ذلك اننا نحاول اسقاطه من التاريخ . وليست هذه الظاهرة غير تعبير عن الروح القبريرية المتأصلة في فكر الكثيرين منا . سيسعى البعض الى البرهنة على أن حزيران لم يكن أكثر من شهر طارئ على الاعوام العربية . وسيسعى البعض الى البرهنة على أن حزيران لم يكن نتاج خلل أو خطأ في بنية حياتنا السياسية والاجتماعية والفكرية . وبذلك نستوحي من مجرد الجرأة على اطلاق النار على العدو دليلا على شرعية أخطائنا التي كانت من أسباب هزائمنا . وهذا يشكل ، بحد ذاته ، اتجاها منافيا لاتجاه انبعاث الأمة .

البداية الجديدة التي تطمح الأمة العربية الى أن تنضج اثناء الحرب ، وتتجسد في اعادة النظر بأنماط حياتنا على كافة المستويات وفي كل الميادين ، والتي تنطوي على التنازل عن أفكار قديمة وقناعات خاطئة — هذه البداية الجديدة هي التي تعني روح الأمة وتثريه بتعامل جديد مع العصر ، ولا تعيد الروح الى الأمة ، لأن الأمة في ذروة مأسيتها وكوارثها لم تفقد الروح .

هذه هي البداية الجديدة التي تتشكل اثناء تجربة الجماهير العربية في خوض معارك